المحور الرابع: قرطاجة نشأتها وتوسعها ودورها السياسي في تاريخ المغرب القديم

لم يحظى تاريخ تأسيس قرطاجة المألوف (814-813ق .م) الذي أوردته المصادر الأدبية الاغريقية والرومانية بتأييد جميع المؤرخين المعاصرين، ولقد شعب القالب الأسطوري لقصة تأسيس قرطاجة هذا الموضوع لأنه جعل أننا نجهل بداية تاريخ هذه المدينة لفقدان المعطيات، فلم نعثر إلى حد الأن على نقائش تعود إلى ذلك العهد، ويبدو أن جدولها التاريخي قد أتلف [158].

تأسست مدينة قرطاجة في حوض البحر الأبيض المتوسط من طرف بحارة فينيقيين هاجروا من صور إلى سواحل شمال إفريقيا، وسميت "قرط حدشت" أي المدينة الجديدة، وهو الاسم الذي حوَّله الاغريق واللاتين إلى كارشيدون أو كرخدون[159].

I.تأسيس قرطاجة من خلال المصادر الأدبية:

يمكن توزيع الشهادات الأدبية إلى ثلاثة أقسام هي:

1.القسم الأول: واستند فيه المؤرخون إلى "تيميوس" وهو مؤرخ إغريقي من القرن الرابع ق.م. الذي أورد أن قرطاجة وروما أسستا في السنة الثامنة والثلاثين قبل الأولمبياد الأولى. وقد اعتمد معظم المؤرخين على هذا التقدير في تواريخهم لإحداث العاصمة البونية، سواء أشاروا إلى الفرق الزمني الذي يفصل بين سنتي تأسيس قرطاجة وروما ، أو أوردوا الفترة الزمنية التي عاشتها قرطاجة [160] .

2.**القسم الثاني:** اعتمد على تاريخ تأسيس روما 753 ق.م تاريخ مرجعي، ويذكر أن تأسيس قرطاجة كان قبل تأسيس روما بـ65 سنة فيكون بذلك تاريخ تأسيسها 818 ق.م، وهناك من ذكر أن الفارق بين قيام روما وقرطاجة كان 72 سنة فيكون بذلك زمن تأسيس قرطاجة 825 ق.م[161].

3.**القسم الثالث**: ويمثله افَلُويُوسِ يُوسيفوس وهو مؤرخ يهودي عاش في القرن الأول .م. اعتقد أن قرطاجة أنشئت في العام السابع لحكم بيجماليون ملك صور. وقد استقى معلوماته من ميناندروس الأفسسي الذي قد يكون اطلع على الحوليات الملكية لمدينة صور [162].

II. تأسيس قرطاجة من خلال المصادر المادية:

تتمثل المصادر المادية للتاريخ الفينيقي في غربي البحر المتوسط في البقايا الأثرية التي تركها هؤلاء الاقوام في المواقع التي حلو بها.

يرجع تاريخ تأسيس قرطاجة في الربع الأخير من القرن الثامن - على وجود الفخار الإغريقي(أو الذي يشبهه في الطابع) في الطبقة السفلى للمعبد (قوداش) الذي اطلق عليه اسم "توفاة "، واعتقد أن هذه الأواني تؤرخ كل ما وجد في هذه الطبقة، وبالتالي تؤرخ عهد تأسيس قرطاجة أي بين سنتي 730 و 700 ق.م[163].

ونذكر من بين الشواهد الأثرية الفينيقية في الحوض الغربي للبحر المتوسط تشير الى الوجود الفينيقي قبل عام 750 ق.م فيما عدا كتابة حجر نورا (Nora) التي عثر عليها في جزيرة سردينيا، التي نسب العالم البرايت (Albright) تاريخها الى القرن التاسع قبل الميلاد. وبذلك فإنها ستكون معاصرة لمدينة قرطاجة[164].

كما عثر على شقفات فخارية ترجع الى العهد الهندسي الحديث في سبر أجرى في هذا الموقع سنة 1987. وتمثل هذه الشقفات قطعا صغيرة لثلاثة اسكيفوس وصحن ذي عروة وكوتيل وقع استيرادها من اليونان وخاصة من أوبي، حسب نوعية مادة الطين ما عدا الكوتيل الذي قد يكون صنع في قرطاجة وتعود هذه الأواني حسب م فيجاس إلى الربع الثاني والثالث من القرن الثامن، مؤرخة أحد السكيفوس بين 760 و750ق.م وتعتقد هذه الباحثة أن الصحن وصل إلى قرطاجة قبل 750ق.م. نظرا لاضمحلال هذا النوع بعد هذا التاريخ[165].

إن المعطيات الأثرية الحالية تفيد وجود علاقات تجارية كانت تربط قرطاجة بالشرق الفينيقي من ناحية، والعالم الإغريقي من ناحية أخرى، في الربع الثاني من القرن الثامن، وتشهد على أن تأسيس هذه المدينة حدث قبل تلك الفترة. ولذا فهي تحثنا على أن نثق في التاريخ المتداول (814/813 ق.م.) أو على الأقل في فترة قريبة منه.

III. أسطورة التأسيس:

يمتزج التاريخ بالأسطورة في خصوص تأسيس قرطاجة ، ويرجع هذا إلى أن جل المدن الكبرى القديمة، كأثينا وروما وقرطاج، نسج الخيال حول نشوئها أساطير ترمز بون شك إلى حقائق تاريخية ثابتة. حيث تروي الأسطورة أن قرطاجة تأسست على يد ملكة فينيقية صورية سميت عليسا أو إليستا أو إليشا[166] أو ديدون[167]، ورثت العرش بعد وفاة أبيها "ماتان" (Matan) مناصفة مع أخيها "بقماليون"، هذا الأخير الذي أقدم على قتل خالها وزوجها في نفس الوقت "عاشرباص" كبير كهنة ملقرط، ففرت خوفاً من جشع أخيها بأموال زوجها ومؤيديها الى شمال إفريقيا بعد أن انظم إليها كاهن يونو (Juno) الذي حاز ونسله من بعده على الإشراف الديني في المدينة الجديدة بالإضافة إلى 80 من الفتيات ليكن زوجات لخدمها، وابتاعت قطعة أرض بحجم جلد الثور (Byrsa) [168]، غير أنها كانت ذكية وقطعته إلى شرائط رقيقة مدت مدينتها بطول تلك الشرائط وأسمتها قرطاجة أو "قرط حدشت"[169].

IV.الحياة السياسية:

من المعروف أن المدن الفينيقية الشرقية بقيت من الناحية السياسية مستقلة عن بعضها بعضا، وكل واحدة منها تهتم بمصالحها الذاتية المباشرة، وحول كل منها مساحة من الأرض تكوّن إمارتها أو مملكتها، وهذه كانت عادة صغيرة الحجم، لا تزيد عن الأرض اللازمة لإنتاج الغذاء لحاجة السكان، ولا بد أن المدن الكبرى ولا سيما صور وصيدا، مارست نوعا من السيادة على مدن أخرى في بعض الأوقات على الأقل[170].

ولم تكن مدينة قرطاجة دولة إمبراطورية بمعنى الكلمة، مع أنها أخضعت لسلطانها أكثر المدن الفينيقية الأخرى في الغرب نظرا لتفوقها التجاري والعسكري، فهي لم تنظر إلى هذه المدن على اعتبار أنها ممتلكات لها، ولم تعتبر مواطني هذه المدن مواطنين قرطاجيين، ومن جهة أخرى فإن هذه المدن أصدرت عملتها المستقلة عن عملة قرطاجة كما هو الحال في مدن "صقلية" وفي "قادس" في اسبانيا و" ايبيزا" بالبليار حتى في أوج سلطان قرطاجة[171].

يعد المظهر الوحيد في قرطاجة الذي حظى بإطراء ومديح أباطرة الاغريق والرومان هو دستورها السياسي الذي يبدو أنه كان يكفل لها الاستقرار، وهو مطلب عزيز كانت تنشده المدن في العصور القديمة[172]. حيث

مرّ النظام السياسي في قرطاجة بمراحل مختلفة من حيث السيطرة على الاقليم والمهام والصلاحيات، فأصحاب النظرة التطورية يرون في قرطاج نموذجا مماثلا للمدن الدول الاغريقية انتقلت من ملكية الحق الالهي الى الديمقراطية وتوازن السلطات، وقد استند هذا الرأي الى تطور السلطة التنفيذية من الملكية الى الحكم الثنائي للسبطين المنتخبين وتطور السلطة التشريعية الى توازن بين تمثيلية الارستقراطية في مجلس الشيوخ والعامة في مجلس الشعب.

1.نظام الحكم:

نهجت قرطاجة منذ تأسيسها وحتى القرن السادس قبل الميلاد سياسة المدينة الدولة فكانت نسخة طبق الاصل للوطن الام (الساحل الفينيقي)[173]، ولدينا نقش من جزيرة مالطة يدل على أن هذه الجزيرة كان لها كيان سياسي مستقل. يحكمها نظام الشوفيط (Suffètes) وفي مدن أخرى مثل "ثاروس" " وقادس"[174]. مما يدل على ان لكل من المستوطنات كيانها الخاص في نطاق الكيان القرطاجي العام الذي يشمل الدفاع والتحالف العام فيما بين هذه المستوطنات[175].

وقد ورد ذكر حكم الاسر منذ القرن السادس قبل الميلاد فقد آل الامر في قرطاجة الى حكم الماغونيين[176] التي دام حكمها قرابة ثلاثة أجيال (ماغون نفسه: وابناءه صدر بعل هملكار، ابناء صدر بعل حنبعل صدربعل سافو، ابناء هملكار خملكان حنون جيسكون)، وفي هذه الاسرة ظهر مجلس الشيوخ كطرف في الحكم الى جانب الملك، وقد اعتبر ذلك من قبيل الجمع بين السلطتين العسكرية والسياسية في إطار ملكية وراثية[177].

وفي منتصف القرن الخامس قبل الميلاد اسقطت الاسرة الماغونية التي كانت تعتمد على الارستقراطية البحرية، واستبدل الحكم بالشفطان، وتوالت على حكم قرطاجة اسرة الحانونيين، وقد حكمت حتى 308 ق.م، وكل الذي نعرفه عنها اسم آخر ملوكها "بوميلكار" (Bomilcar)[178]، وبعد قرنين من حكم الحانونيين اعتلت الحكم في قرطاجة اسرة البرقيين (Les Barcides)[179]، وتشير الكتابات التاريخية إلى أن الحكم في هذه الاسرة كان ذو صبغة عسكرية أكثر منها مدنية[180].

وقد كان لقرطاج دستور نوه به الفيلسوف اليوناني أرسطو، وبه تنتظم الحياة السياسية بالانتخاب، والحياة الإدارية بالقانون. والحياة الاجتماعية بسلطات تشريعية وقضائية وتنفيذية. ويقوم هذا الدستور على مؤسسات لم تكن لها سلطات مستمرة ومحددة عبر تاريخ قرطاج، بل كانت لها سلطات متفاوتة عبر الزمان. وأهم هذه المؤسسات [181]:

المؤسسات الدستورية:

أ. الشفطان:

كان لثورة عام 450 ق.م، والتي تمخضت، عما خلفته معركة "هيمرا"[182] من تراكمات، تأثير واضح في نظام الحكم داحل قرطاج، إذ تقلصت فترة ولاية الحاكم بعد استبدال لقبه من ملك إلى شفط[183].

والشوفيط تسمية سامية عثر عليها منقوشة في الانصاب البونية في قرطاجة، وهي مأخوذة من كلمة شبط أو سبط (SPT) التي تعني القاضي[184]، وقد كان الاشفاط في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد يمارسون وظيفتهم في قرطاجة كل سنة قاضيان يتوليان الحكم لمدة سنة[185]، شبههم ارسطو بالقنصلان في اسبرطة[186]، من مهامهما استدعاء مجلس الشيوخ للاجتماع تحت رئاسته، وتحضير جدول اعماله، وقراءة القرارات النهائية التي يصادق عليها مجلس الشيوخ، بالإضافة الى استدعاء مجلس الشعب عند الحاجة، وتولي قيادة الجيوش[187]،وأن بوليبيوس يسميهما بالسلطة العليا وذلك لأن البرقيين في نظره كانوا ملوكا، وذلك لأن صدر بعل وحنبعل كانوا لهم سلطات ملكية[188].

ب. مجلس الشيوخ:

يمثل مجلس الشيوخ أقدم المؤسسات السياسية التي عرفتها قرطاج وأقواها نفوذا، فهو أول مؤسسة تطرق إليها المؤرخون بعد القرنين الثامن والسابع[189]. حيث بدأت أخباره تتداول منتصف القرن السادس قبل الميلاد في عصر الاسرة الماغونية[190]، كان اعضاءه ينتخبون دستوريا من قبل الشعب طبقا لما تقتضيه القوانين كالمواطنة والسن والثروة والمستوى الثقافي فضلا عن الوجاهة والقدرات الشخصية[191]، وسمي أعضاءه ببعول قرطاج، عددهم لا يقل عن 300 عضو[192]، من صلاحياته اعلان الحرب والسلم، واستقبال

السفراء الاجانب وارسال البعثات، بالإضافة الى تقرير تجنيد المرتزقة والعبيد أثناء الحروب، دراسة التقارير التي يرسلها قادة الجيوش والبث فيها بتزويد التعليمات اللازمة، والسهر على الامن داخل المدينة الدولة، بالوقوف في وجه من تخول له نفسه الاستيلاء على الحكم، وسن القوانين ومتابعة تنفيذها[193]، ويذكر محمد الهادي حارش أن سلطة هذا المجلس تقلصت امام تزايد قوة الشعب[194].

وعلى الرغم من الصلاحيات والمهام التي كانت بيد مجلس الشيوخ إلا أنه واجه منافسة قوية في فترات من قبل بعض القادة العسكريين الذين ظهروا فيما بعد، واستغلوا دورهم على رأس القوات الحامية للدولة وفرضوا أنسهم عليه بالقوة نتيجة الحاجة إليهم لمواجهة الخطر الخارجي، وأصبح هذا المجلس في كثير من الأحيان يسايرهم ولا يستطيع مواجهة بعض القادة بالعداء[195].

جـ. محكمة المائة والاربعة:

هي محكمة منتخبة من هيئة أو "هيئات" تضم خمسة أعضاء لذا أطلق عليها اسم "الهيئات الخماسية"، وبرزت في القرن 5 ق.م.، وعند انتهاء مهامهم يسند إليهم لقب "حاكم" من أجل تمتعهم بالحصانة[196]. كما تعتبر هذه المحكمة ابرز الهيئات القضائية المعروفة في قرطاج، يذكر يوستينيوس أنها نشأت بتنامي نفوذ العائلة الماغونية التي اصبحت تضغط على الحريات العامة وتجمع بين السلطة السياسية والقضاء[197]، ويؤرخها غزال بمنتصف القرن الخامس قبل الميلاد[198]، ويذكر ارسطو انهم مشابهين لسلطة مجلس القضاة أو الرقباء الخمسة في إسبرطة، على انها تختار من بين الارستقراطية[199]، ويذكر غزال انه مع تطور المؤسسات السياسية في قرطاجة في منتصف القرن الخامس حتى بداية القرن الثاني قبل الميلاد تنامى دور مجلس المائة والاربعة من محكمة عليا الى النظر في مختلف القضايا في اطار المحاكم المدنية[200].

د. مجلس الشعب:

يعرف باللغة الفينيقية ب" عم قرت حدشت". ولكل مواطن حق الدخول فيه حسب شروط مضبوطة. حيث ظهر هذا المجلس حوالي القرن السادس قبل الميلاد[201]، يتكون من المواطنين القرطاجيين ولا يخول للعبيد أو الاجانب الدخول فيه، ويشترط في اعضاءه ان يبلغوا سنا معينة، وان يكون لهم مقدار معين من

المال[202]، ومن صلاحياته النظر في القضايا التي يظهر فيها خلاف بين مجلس الشيوخ والشفطان، كما يشارك في انتخاب الضباط الذين يتولون قيادة الجيوش وكذلك الشفطان[203].

يفهم من بوليبيوس أن صلاحيات هذا المجلس زادت على ما كانت عليه، وأصبح يستشار عادة، لكن مع ذلك يعتقد كافينياك أن الطبقة الدنيا من الشعب كانت مبعدة [204]، ويصدر ارسطو حكما ايجابيا يقول: "يعرف القرطاجيون بأنهم محكومون بصفة جيدة ودستورهم أفضل مما لدى غيرهم..."[205].

اضافة إلى هذه الهيئات كان هناك مجلس الثلاثين الذي كانت مهامه الادارية تتعلق بفرض الضرائب والادارة المالية، ومجلس العشرة الذي يتولى شؤون المعابد ومسائل العبادة[206].